معمودية الكتاب المقدس

تأليف: رايموند كلسي

من إحدى مواضيع العهد الجديد العظيمة هي المعمودية. ذكرت كلمة «معمودية» بأشكالها المتنوعة أكثر من مئة مرة في العهد الجديد. ولكن هناك ارتباكات كثيرة عن هذا الموضوع في عالم الأديان. ماذا يقول الكتاب المقدس بالضبط عنه؟

ما هي المعمودية؟

يجب أن يبدأ درسنا عن المعمودية بالسؤال: «ما هي المعمودية؟» أي ما العمل الذي يتم اثناء المعمودية: أهي بالتغطيس أم بالرش أم بصب الماء؟ هل يمكن للكلمة «معمودية» أن تعني أي من هذه الأفعال؟ اصبح هذا الموضوع مثير للجدل لسنوات كثيرة، ولكن لا يبدو انه كان هناك خلافاً بخصوص هذا في زمان كتابة العهد الجديد. حدث كثير من الخلافات وتم ذكرها في الأسفار المقدسة، ولكن لا نجد أي خلاف على مفهوم كلمة «تعميد».

موصوفة بالمصطلحات

«تعميد» هي ترجمة للكلمة اليونانية التي تعني «تغميس أو تغطيس»، ويمكن تعليم هذا بالرجوع إلى معجم اللغة اليونانية، (لا يمكننا معرفة المعنى الذي كانت تحمله هذه الكلمة في القرن الأول إلا بالرجوع إلى معجم اللغة اليونانية، لأن قواميس اللغات الأخرى تفسر هذه الكلمة حسب المفهوم العصري العام وليس حسب معنى الكلمة اليونانية كما استخدمت في القرن الأول).

هناك كلمة يونانية تعني «رش» وهي (ραντιζω) وتلفظ «رانتيزو»، وهناك أيضا كلمة يونانية تعني «صب» هي (χεω) وتلفظ «قيو». تذكر في سفر اللاويين ١٤: ١٥و ١٦ كل من الكلمات الثلاث في الترجمة السبعينية. كان على الكاهن ان يصب الزيت في كَفّه، ويغمس إصبعه اليمنى في الزيت المصبوب في يده اليسرى، وينضح {أي يرش} من الزيت. وردت كل من الكلمات الثلاث في آيتين، والكلمة التي ترجمت إلى «يغمس» هي من أصل الكلمة التي ترجمت إلى «تعميد». هذا صحيح أيضا بما ورد في الملوك الثاني ٥: ١٤، النص الذي يتحدث عن نُعْمَان يغطس نفسه. كان يبدو ان هناك فهم عام لمعنى الكلمة «تعميد» في أيام الرسل، إذن لم يكن هناك خلاف في معناه. اني مقتنع انه يمكن للإنسان الذي لا يعرف اللغة اليونانية التي كتب بها العهد الجديد أن يأخذ الكتاب المقدس ويتعلم ما هي المعمودية من النصوص التي ذكرت فيها.

موصوفة بالأحداث

عندما نقرأ مختلف النصوص، نرى ان المكان الذي كان يتم اختياره دائما لقيام بالمعمودية هو اما نهراً أو حيث يوجد «مياه كثيرة» (متى ٣: ٦؛ يوحنا ٣: ٢٣). قبل تعميد بولس، قيل له أن يقوم ويستعد لعملية المعمودية (أعمال ٢٢: ١٦). في حالة معمودية الوزير الحبشي، نزل إلى الماء كلا من المبشر والإنسان الذي كان يتم اعتماده (أعمال ٨: ٣٨)، أُجْرِيَت المعمودية بينما كانا كلاهما في الماء.

الرجال الموحى إليهم في القرن الأول كانوا بالتأكيد رجالاً عاقلين، وكانت أعمالهم أعمال عقلانية. لم يكن قد عملوا بتعقل لو كان العمل الذي يقام به أثناء المعمودية هو رش أو صب.

قد يكون الرش أو الصب أكثر ملائمة بدون الحاجة للذهاب إلى نهر أو النزول إلى الماء. إن كانت المعمودية هي فقط بالرش، لا يكون هناك أي حاجة لمثل هذه الأعمال. ولكن على النقيض فان التغطيس يعتمد على جميعها. سيكون من الطبيعي جدا اختيار مكان يوجد به «مياه كثيرة»، وعلى الاثنين ان ينزلا معا إلى الماء إذا كانت المعمودية تشمل على التغطيس. بما انه يجب ان نظن بان هؤلاء الرجال عملوا بعقلانية، فينبغي أن نستخلص ان المعمودية بالتغطيس هي التي كانت تمارس في ذلك الزمان.

موصوفة بالتلميحات

أشير في العهد الجديد إلى بعض الأحداث التي لها علاقة بالمعمودية والتي تشير بدورها إلى طبيعة الحقائق. عندما أعطى الكاتب هذه التلميحات، لم يقصد بها أساساً وصف المعمودية، ولكنه فعل ذلك بالضبط بينما كان يكشف بعض الحقائق عنها.

تحدث يسوع عن المعمودية على انها ولادة من الماء في إنجيل يوحنا ٣: ٥. لا يوجد هناك تشابه يمكن التفكير به بين الولادة والرش. بما ان يسوع يسمونه «بكر من الأموات» (كولوسي ١: ١٨)، عند مقارنة قيامته بالولادة، فمن المتبع ان قيامتنا من الماء الذي يمثل قبر هي ولادة بالطريقة نفسها.

يشير كاتب الرسالة إلى العبرانيين إلى غسل الجسد بماء نقي، وهذا من الضرورة انه يشير إلى المعمودية (عبرانيين ١٠: ٢٢). لا يمكن ان يقال عن الرش انه غسل الجسم. أكّد بطرس إلى الذين كان يكتب إليهم ان المعمودية ليست هي «إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح» (١ بطرس ٣: ٢١). رأى بطرس الضرورة لإنذارهم ان المعمودية ليست هي بقصد إزالة الوسخ من الجسد. يبدو انهم ربما كانوا يظنون انها كذلك. إذا كانت المعمودية هي برش قليل من الماء على الراس، لما كانت هناك الحاجة إلى ذلك الإنذار. هذا التلميح وتلميحات أخرى تشير بوضوح تام إلى التغطيس.

موصوفة بالشهادة المباشرة

لنرى الآن بعض الأقوال التي تعلن بوضوح ما هي المعمودية. قال بولس: «فَدُفنّا معه بالمعمودية» (رومية ٦: ٤). وكتب في الرسالة إلى أهل كولوسي ٢: ١٢، «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمْتُمْ أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه منَ الأموات».

إذا كان للشخص ان يحاول الإدلاء بعبارة التي توصف بوضوح ما الذي يحدث أثناء المعمودية بالتغطيس، لا يمكن ان يفعل ذلك بكلمات أكثر وضوحة من ان يقول كنا قد دُفنّا وقُمنا. هل يمكن للشخص الذي رش عليَه قطرات قليلة أن يقول انه دفن مع المسيح وقام؟ لا يمكن ان يقول ذلك فعلاً.

من الذي يمكن ان يعتمد؟

من الذي يمكن ان يعتمد؟ هذا السؤال مهم جداً. والإجابة الصحيحة هي ضرورية.

لا بد ان يكون هناك أساسيات مسبقة

يمكننا ان نعرف من الذي يجب تعميده بالنظر إلى الخطوات التمهيدية الموضحة في الأسفار المقدسة. أوصى يسوع بالمعمودية في المأمورية الكبرى. وبحسب إنجيل متى، يسبق التعليم المعمودية. وبسحب إنجيل مرقس يجب أن يسبق الإيمان المعمودية. وبحسب إنجيل لوقا، يجب ان تكون التوبة جزء من الكرازة (متى ٢٨: ١٩و ٢٠؛ مرقس ١٦: ١٥و ١٦؛ لوقا ٢٤: ٤٦و ٤٧). في يوم الخمسين، طلب بطرس من مستمعيه ان يتوبوا قبل المعمودية (أعمال ٢: ٣٨). إذن، لا يمكن لأحد ان يعتمد حسب ما أوصى بها يسوع إلا إذا تم تعليمه، وآمن، وتاب عن خطاياه. المؤمن التائب هو الشخص الوحيد الذي أوصى يسوع بتعميده. لا يمكن تعليم الطفل بالإنجيل، ولا يمكن أن يؤمن، ولا يمكن ان يتوب. إذاً لا يمكن للطفل ان يعتمد كما أوصى بها يسوع المسيح.

ممارسة معمودية الأطفال هي عمل بدون وصيته أو بدون سلطانه، وهو يملك «كل سلطان» (متى ٢٨: ١٨). حيثما تسود ما تسمى بـ« معمودية الأطفال »، يكون هناك التقليل من معمودية المؤمنين. لنتذكر ان معمودية المؤمنين هي المعمودية الوحيدة التي أوصى بها يسوع.

« معمودية الأطفال » لم تكن تمارس

لدينا في سفر أعمال الرسل سجل كرازة الرسل عندما كانوا يتبعون المأمورية الكبرى. كانوا يعملون تحت سلطان يسوع وكانوا يتممون الواجبات المعطاة لهم في المأمورية الكبرى. زعم البعض انهم عمدوا أطفالاً. إن كانوا قد فعلوا هذا، فقد اخترقوا سلطان يسوع. إن كانوا قد عمدوا أطفالاً، لم يذكر ذلك في كتاب أعمال الرسل. ذكر عن معمودية المؤمنين في (أعمال ٢: ٣٧-٤١؛ ٨: ١٢)، ولكن لم يذكر أبداً عن معمودية الأطفال.

ذكر الأطفال في علاقة مع أحداث كثيرة في الكتاب المقدس، مثل قرار هيرودس ويسوع يبارك الأطفال، ولكن لم تذكر أبداً أية علاقة بين الأطفال والمعمودية. في العهد القديم، أمر الله بختان الأطفال - وتم ذكر هذه الممارسة مراراً. بالمقارنة في العهد الجديد، لا توجد لدينا وصية من الله لتعميد الأطفال ولا نجد مثالاً من الرسل بما يختص بهذه الممارسة.

الذين يدافعون عن « معمودية الأطفال »، قدموا حالات اعتمد فيها أهل البيت كشهادة. أشاروا إلى أهل بيت كرنيليوس، وكريسبس، والسجان (ضابط السجن) الفيلبي، وليدية، وقالوا لابد ان هذه الأسر كانت تشمل على أطفال، ولكن ذلك استنتاج غير ضروري. قد يكون هناك عدد من الأسر دون ان يوجد لها أطفال. لا بد أن يكون هناك إفتراضات أكثر مما ينبغي للوصول إلى الخلاصة التي وصل إليها الذين يريدون التمسك بوجهة النظر هذه.

على سبيل المثال فكر في أمر ليدية. الذي يوافق على « معمودية الأطفال » لا بد أن يفترض ان ليدية كانت متزوجة، وان لها أولاد من بينهم من كانوا أطفالاً، وانهم كانوا معها في رحلة عمل من ثياتيرا إلى فيلبي! لا يمكن الأعتماد بأمان على مثل هذه الإفتراضات المتسلسلة. في الحالات الأخرى التي ذكرناها، قيل شيء في كل منها الذي يمنع احتمال وجود الأطفال في الأسرة. بيت كرنيليوس كان « خائف الله » (أعمال ١٠: ٢). بيت كريسبس « آمن بالرب » (أعمال ١٨: ٨)، و « آمن » بيت السجان الفيلبي (أعمال ١٦: ٣٤). الأطفال لا يخافون الله ولا يؤمنون. إذن لم يكونوا مشمولين في تلك الأُسَرْ.وبما ان المعمودية هي لغسل الخطايا فلم يكن حاجة إلى تعميد الأطفال.

« معمودية الأطفال » غير منطقية

علم يسوع ان الأطفال هم بلا خطيئة (متى ١٨: ٣). لقد علم انه عند هدايتنا نكون « مثل الأولاد الصغار » (كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية). بما ان الغرض من المعمودية هو مغفرة الخطايا (أعمال ٢: ٣٨)، فيكون من المستحيل للطفل أن يعتمد بموجب الأسفار المقدسة. تم الدفاع لمدة سنين كثيرة عن « معمودية الأطفال » على أساس ان الأطفال مذنبين بالخطيئة الأصلية، رغم ان الكُتّاب القدماء مثل ترتوليان يتفقون ان الأطفال هم بلا خطيئة، في القرنين الأولين من تاريخ الكنيسة، لم يكن هناك دفاع عن هذه الممارسة ولا ذكر لها. علاوة على ذلك، يمنع تعليم العهد الجديد احتمال قبول معمودية الأطفال.

الذين يعمدون الأطفال، تخلوا في وقت مبكر عن فكرة الخطيئة الأصلية كسبب لعماد الأطفال. كما هي قائمة، إذن، ممارسة « معمودية الأطفال » هي بلا معنى أو منطق. المعمودية هي عمل طاعة جليل لله.

هل المعمودية ضرورية؟

قال يسوع لتلاميذه ان يعمدوا « باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨: ١٩). العمل الذي يتم باسم كل الأقانيم الثلاثة له غرض مهم بكل تأكيد. ما هو غرض المعمودية؟ قد أصر كثيرون على ان المعمودية هي مجرد عمل

شكليات خيارية. ولكن على النقيض، تم تصميمها بحيث لا يمكن لأحد ان يكون مسيحي دون ان يعتمد بطريقة صحيحة.

انها شرط الخلاص

من الضروري للمرء ان يعتمد لكي يصير مسيحياً لأن يسوع أعطى المعمودية كشرط للخلاص (مرقس ١٦: ١٦). وُضِعَتْ المعمودية قبل الخلاص. وهي مرتبطة بالإيمَان. الخلاص يتبع الإيمان والمعمودية. ليست المعمودية الشرط الوحيد ولا هي الشرط الأكثر أهمية، ولكنها من إحدى الشروط التي جاءت في خطة الخلاص. قد تزول السماء والأرض ولكن كلام يسوع لا يخيب. بعد وضع كلام يسوع نفسه في الاعتبار من الذي يجرؤ بقول: «من آمن ورفض ان يعتمد خلص»؟ يسوع هو الذي قال: «من آمن واعتمد خلص».

انها لمغفرة الخطايا

من الضروري للمرء ان يعتمد لكي يصير مسيحياً لأن العهد الجديد يعلم ان المعمودية هي لمغفرة الخطايا (أعمال ٢: ٣٨). سمعان بطرس هو الذي قال هذه العبارة، وكان رسولاً موحى إليه تكلم كما أعطاه الروح ان ينطق به. قيلت هذه العبارة للإجابة على السؤال: «ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة؟» كان بطرس قد أقنع ثلاثة آلاف من الناس وجعلهم يشعرون بذنوبهم ببراعة الكرازة برسالة إنجيل الله. قال لمجموعة من المؤمنين: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا...».

لقد رُبِطَ بين التوبة والمعمودية في هذا النص. يقَال ان كلاهما لمغفرة الخطايا. مهما كان الشيء الموجب للتوبة، فالمعمودية هي من أجل ذلك الشيء نفسه. إذا كان هكذا كما يجادل البعض انه كان على المهتدين في كتاب أعمال الرسل ان يعتمدوا لأن خطاياهم قد غفرت، إذن، كان عليهم أن يتوبوا أيضاً لأن خطاياهم قد غفرت؛ وليس لهذا أي معنى! إذا كانت مغفرة الخطايا تأتي بعد التوبة، إذن، انها تأتي أيضاً بعد المعمودية. لدينا التعبير نفسه «لمغفرة الخطايا» في إنجيل متى ٢٦: ٢٨. دم المسيح سُفكَ لمغفرة الخطايا. بكل تأكيد، لا يمكن لأحد ان يجاَدل بان المسيح سفك دمه لأن الخطايا قد غفرت سلفاً. بل سفك دمه لكي يقتني لنا مغفرة الخطايا. يجب على الخطاة أن يعتمدوا لكي يحصلوا على مغفرة الخطايا تلك.

انها تخلصنا

من الضروري للمرء ان يعتمد لأن العهد الجديد يعلم ان المعمودية تخلص (١ بطرس ٣: ٢١). لننظر إلى كلام بطرس مرة أخرى. المعمودية تخلصنا! طبعاً لا تخلص بالمفهوم ان يسوع الذي يخلصنا. مخلصنا ليس المعمودية؛ ولكن يقال انها تخلص لأنها واحدة من العوامل التي يُنْسَب إليها الخلاص. هي واحدة من الشروط التي أعطاها يسوع التي يجب ان يفي بها الإنسان لكي يتمتع بالخلاص. لقد حاول كثيرون تفسير هذا النص بطريقة كأنها تستخلص ان المعمودية لا تخلص – ولكن قال بطرس بانها تخلص! عندما «يفسر» أحد كلمات بطرس بحيث يستنتج ان المعمودية لا تخلص، يكون «تفسيره» نكران واضح لما قاله بطرس.

انها تضعنا في المسيح

من الضروري للمرء ان يعتمد لكي يصير مسيحياً لأن العهد الجديد يعلم ان المعمودية تضعنا في المسيح (رومية ٦: ٣و ٤)، عندما نعتمد في المسيح، نلبس المسيح (غلاطية ٣: ٢٧) ونصير خليقة جديدة في المسيح (٢ كور ٥: ١٧). الفداء وإنما هو في المسيح (أفسس ١: ٧) الحياة الأبدية هي في المسيح (١ يوحنا ٥: ١١) كل البركات الروحية توجد في المسيح (أفسس ١: ٣). بينما العالم كله قد وضع في قوة الشرير (١ يوحنا ٥: ١٩)، يوجد المسيحي في المسيح. المعمودية هي العملية التي تضع الشخص في المسيح.

انها تغسل خطايا

من الضروري للمرء ان يعتمد لكي يصير

مسيحياً لأن العهد الجديد يعلم ان المعمودية مرتبطة بغسل الخطايا (أعمال ٢٢: ١٦) تذكر بعض النصوص هذا الغسيل (أفسس ٥: ٢٦؛ عبرانيين ١٠: ٢٢؛ تيطس ٣: ٥). قيل لشاول: «قم واعتمد واغسل خطاياك...» (أعمال ٢٢: ١٦). في طريق إلى دمشق كلم الرب شاول بانه سيقال له في دمشق «ماذا ينبغي» ان يفعل (أعمال ٩: ٦)، {وفي دمشق} قيل له ان يعتمد ويغسل خطاياه.

يعترض كثيرون على ارتباط المعمودية بغسل الخطايا لأنهم يقولون لا يمكنهم الإيمان بان الماء يغسل خطايا. ولكن أعمال الرسل ٢٢: ١٦ لا يقول ان الخطايا تغسل بالماء؛ بل بالأحرى لا يقول ماذا يغسل الخطايا، ولا يقول متى تُغْسَل. أعلن يوحنا اننا قد غُسِلْنا من خطايانا بدم يسوع المسيح (رؤيا ١: ٥)، هذا النص يذكر ما الذي يغسل الخطايا ولكن لا يخبرنا متى يتم ذلك. عندما نضع أعمال الرسل ٢٢: ١٦ مع رؤيا ١: ٥ نحصل على الشيء الذي يغسل الخطايا (دم المسيح) ومتى يحدث ذلك (في وقت المعمودية). طبعاً الدم لا يغسل الخطايا بالمعنى الحرفي، وبكل تأكيد لا يمكننا ان نلمس دم يسوع بالمعنى الحرفي. ينبغي ان نقترب منه روحياً بواسطة الوسائل التي اختارها الله لذلك الغرض.

انها تُمَكّنا من الخلاص بالنعمة

من الضروري للمرء ان يعتمد ليصير مسيحياً لأن العهد الجديد يعلم اننا مخلصين بالنعمة (أفسس ٢: ٥، ٨، ٩؛ تيطس ٢: ١١). لم يخلص أحد بالنعمة حتى يستجيب للشروط التي أعطيت بها النعمة. «وجد نوح نعمة في عيني الرب» (تكوين ٦: ٨). استفاد نوح من تلك النعمة نسبة لطاعته لوصايا الله. أعطى الله مدينة أريحا إلى يشوع (يشوع ٦: ٢)، ولكن لم يحصل يشوع على هذه العطية حتى أوفى بالشروط التي وضعها الله. خبزنا اليومي هو من النعمة، هو عطية من الله. ومع ذلك، لا نحصل على خبزنا اليومي إن لم نستجب لقوانين الطبيعة. هكذا أيضاً خلاصنا؛ نحن مخلصين بالنعمة ولكن النعمة لا تخلص الإنسان غير المطيع. بما ان يسوع أوصى بالمعمودية كشرط للخلاص، فمن المتبع ان نعتمد لكي نخلص بنعمة الله.

انها تسمح لنا ان نخلص بالإيمان

أخيراً، من الضروري للمرء ان يعتمد لكي يصير مسيحياً لأن العهد الجديد يعلم اننا مخلصين بالإيمان. الإيمان الذي يثمن هو الإيمان الذي يعمل (غلاطية ٥: ٦)، نحن غير مخلصين بإيمان ميت، أي إيمان بدون أعمال (يعقوب ٢: ٢٦). الإيمان يكمل بالأعمال (يعقوب ٢: ٢٢). بناءاً على ما ورد في إنجيل مرقس ١٦: ١٦، فان المعمودية هي عمل الطاعة المرتبط بالإيمان «من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدن»، بما ان هذا حق، الإيمان الذي يخلص هو الإيمان القوي الذي يحرك الشخص لكي يعتمد. الإيمان يخلص عند الطاعة.

الخلاصة

يمكننا ان نصل إلى عدة استنتاجات من معنى كلمة «عمد» ومن الأمثلة والعبارات التي نجدها في العهد الجديد. هناك مختلف التلميحات في رسائل بولس تتفق تمام الاتفاق بوصف المعمودية على انها دفن، وتغطيس. نرى ان هذه هي المعمودية التي تمت ممارستها فقط على المؤمنين التائبين. لكي تغفر لهم خطاياهم وليخلصوا بنعمة الله.

قد رأينا ان المعمودية تخلصنا وتضعنا في المسيح. كتعبير عن الإيمان، فان المعمودية هي استعمال نعمة الله، لأنها الحد الذي تغسل فيه الخطايا. يُستنتج من كل هذه الشروط ان المعمودية ضرورية لخلاصنا.

هل اعتمدت بهذه الطريقة ولهذا السبب؟ «والآن لماذا تتوانى؟ قم واعتمد واغسل خطاياك داعياً باسم الرب» (أعمال ٢٢: ١٦). ❖

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧